سورة الأحزاب
الكاتب : عبد الله القرشي
التاريخ : 14 سبتمبر 2014 م
المشاهدات : 7324

في هذه السورة تكرّر معنى التعظيم لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورعاية حقه وعدم أذيته وكأنه هو المقصود الأعظم من هذه السورة. ففي هذه السورة ذُكِرت الأذيّة التي تلحق هذا النبي الكريم من أعدائه المشركين، وأعدائه المنافقين، وأذية أصحابه، وأذية زوجاته، وأذية الجمهور العام وهو يبلغ رسالات الله، ثم ذكر الله في خاتمتها: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا (69)} [سورة الأحزاب].

وفي هذه السورة جاء التوجيه الرباني لنبيّه الكريم في التعامل مع هذه الأذيّة، وهو أسوة حسنة لكل من أوذي من الدعاة والمصلحين.

حين قرأتُ سورة الأحزاب لفت انتباهي هذا المعنى المتكرر، وكأنه الخيط الناظم لمعاني السورة وآياتها. ثم راجعت الألفاظ فوجدت سورة الأحزاب هي أكثر سورة ورد فيها هذا النداء: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ}، وقد أشار ابن عاشور لتكرار هذا النداء في هذه السورة. ووجدت أنّ كلمة: (الأذية) ومشتقاتها هي الأخرى أكثر ما وردت في سورة الأحزاب، ثم يأتي التوجيه الرباني الواضح: {وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (48)} [سورة الأحزاب].

إنّ العدو يؤذي والصديق يؤذي كذلك، والبعيد يؤذي والقريب يؤذي كذلك. وهذه الأذية وإن اختلفت في دوافعها ومقاصدها إلا أنها تحمل معنى الأذى. وربما استطاع الرجل أن يقاوم ويحتمل الأذى من أعدائه ومناوئيه، ثم يعجز عن احتمال الأذية من أصحابه ومحبّيه. بعض الأذى يأتي من الحب، و(عشم المحب) تصعب مقاومته، وقد يترك الإنسان شيئًا من مصالحه وقناعاته رعايةً لعشم المحبين.

إنّ رعاية أذية الأعداء توصل الإنسان إلى سجنٍ قضبانُه من حديد، ورعاية عشم المحبين توصل إلى سجن آخر قضبانه من حرير، {وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ} [سورة الأحزاب].

لقد ذكرت السورة أذية المشركين والمنافقين؛ المشركون يأتون إلى المدينة بجيشهم وعتادهم يريدون أن يستأصلوا شأفة

هذا النبي ودعوته، والمنافقون في صفوف المسلمين يبثون الوهن والفتنة ويخذلون المسلمين في كربهم وشدتهم. ولهم ألسنة حداد تصل إلى القلوب والعقول بشبهاتها وتعويقها: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا(18)} [سورة الأحزاب].

وأذية أهل الشرك والنفاق مشهورة معلومة، لكن هناك أذية أخرى تأتي من المحب وهو لا يشعر، أذية تأتي من فرط الحب والقرب: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ(٥٣)} [سورة الأحزاب].

ومع الحياء من جهة، والحب من جهة أخرى، قد تستمر الأذية طويلًا، وتأخذ من الجهد والطاقة ما تأخذ، وهي في النهاية على حساب الهدف الأسمى وتحقيق المشروع وبنائه.

كذلك تأتي الأذية من أهل البيت، وربما حصل التنافس البشري المعتاد داخل البيت، وكان على حساب هذا النبي الكريم، فجاء التوجيه الرباني وحسم هذا النوع من الأذى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا(28) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا(29)} [سورة الأحزاب]. وهو أقرب لأذية النفقة والتنافس عليها. وفي أذية القسم ونحوه: {تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا(51)} [سورة الأحزاب].

وفي هذه السورة ذكرت قصة زواج النبي ـصلى الله عليه وسلمـ من زينب وقد كانت زوجة لزيد الذي نُسب لرسول الله قبل أن يحرم التبنّي.

وكان لهذا الأمر تأثير خاص على نفسه ـصلى الله عليه وسلمـ حتى صرّح القرآن بعتابه: {وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ} تقول عائشة رضي الله عنها: لو كتم محمد ـصلى الله عليه وسلمـ شيئًا مما أوحي إليه من كتاب الله لكتم: {وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ}.

ثم جاء التعامل اللائق بمقام النبي الكريم، وهو كمال الحب والتعظيم والدعاء: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا(56) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا(57)} [سورة الأحزاب].

ورعاية حقه وعدم أذيته يكون في حياته وبعد مماته: «وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا(53)} [سورة الأحزاب].

والوصية للنبي الكريم، ولكل محبٍّ وتابع يدعو إلى الله ويعاني أمر الإصلاح: {وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا(48)} [سورة الأحزاب].

المصادر: